سيمياء القصيدة المعاصرة وحدود التأويل

شمس الدين شرفي●

الملخص :

افتراض أن القصيدة المعاصرة هي كون علامي مشفر هو المدخل الأساسي الذي يمكن الناقد بالنفاذ إلى طبقات المعاني المستترة؛ فالشاعر المعاصر غالبا ما ينزع إلى تجديد أدوات الإبداع الشعري، فضلا عن تغييره المستمر لنسق الرؤيا الهاجعة في الخلفية اللاواعية للنصوص. لكن مساءلة هذه النصوص تقتضي أن نكون على علم مسبق بأنظمة الشفرة المعتمدة في الكتابة المعاصرة؛ ففعل قراءة القصيدة يستلزم معرفة خاصة بأنساقها الإبداعية التي تستبطن أنظمة فك الشفرة ، وهذا ما يستلزم في الآن نفسه مهارة تأويلية.

و قد عمدنا في هذه الدراسة إلى تجاوز المقولات السيميائية لمدرسة باريز،لقصور سيمياء غريماس خصوصا والمدرسة الفرنسية عموما في مقاربة النص الشعري،بسبب محدودية نموذجها النظري، وانطوائه على معالجة القضايا السردية،مع ازورار أعلام هذا الاتجاه عن دراسة الأجناس الأدبية الأخرى .

Abstract :

The main gate from which critics can access to different hidden semantic layers of a poem is to assume that the modern poetry is an encrypted indication because, often, the contemporary poet opt for changing the poetic creative tools as well as the constant changing of the dormant visions' layout in the unconscious background of texts. But dealing with such texts requires a prerequisite in hermeneutics of knowledge with the coding systems employed in contemporary writing, for the act of reading into a poem requires a particular knowledge with its artistic layouts underlying decoding systems, which by its turn requires a competency in hermeneutics.

● أستاذ محاضر، قسم اللغة والأدب العربي ، كلية الأدب واللغات ، جامعة الشهيد عباس لغرور خنشلة.

In this study, we deliberately exceeded the semiotics, citations of the School of Paris to the Semiotics, Mansions of Julian Greimas in particular and the French School in general vis-à-vis approaching poetry due to its limited theoretical paradigm and its introversion to deal with narratological issues whose scholars lean to study other types of literary texts rather than poetry.

إن بناء الكون الشعري من حيث هو تحيين لمعنى ما أو تجسيد لمنظومة من المعاني تتحقق عبر إرساء سلسلة من العناصر العلامية،ينهض على توالي المركبات العلامية التي تتضافر وتتصالب فيما بينها مولدة فضاء علاميا تنضوي في رحمه أشكال من الرؤى والتصورات والتنويعات الفنية والخيارات الجمالية التي ينبني عليها الديوان الشعري،الذي ربما استبطن في النهاية كل الكون العلامي الذي تقوم عليه الخيارات الإيديولوجية والفنية للشاعر.

و القصيدة بما هي مسرح للسيرورة التدليلية ليست في النهاية سوى مركب علامي،أو مجموعة من العناصر العلامية التي تنبني عليها شبكات المعاني في النص الواحد. إن هذه الحقيقة هي التي دفعت ياكوبسون إلى التصريح بأن أكثر مسائل البحث في شعرية اللغة إنما هو من جنس البحث السيميائي الخالص.[1] لكن السؤال الأشد إلحاحا في مقاربة الخطاب الشعري المعاصر خاصة،يظل منفتحا على إشكالية معرفية حادة تتمثل في حقيقتين لامناص من مواجهتهما :

1- طبيعة المتن الشعري المعاصر القائمة على المراوغة وخفاءالقصد والتعمية و التفلّت المستمر للمعنى، واستعصاء الدلالة على الإدراك المباشر، بسبب طابع اللامباشرة الذي يسم السلسلة الدلالية التي تنبني عليها شبكة العلامات المؤطرة للنصوص الشعرية .

2-الطابع المنطقي المجرد للمقولات السيميائية المعنية بتحليل النصوص عامة والخطاب الشعري خاصة. فالناظر في هذه المقولات . في سقفها العام والمجرد . يجد أنه من العسير إسقاطها بصورة آلية على أي نص شعري، لأن الشعر المعاصر عامة ذو لغة زئبقية ما تنفك تراوغ المتلقي أو تخاتل الدارس حتى إذا ما ظن أنه قد أفضى إلى ختمها،وانتهى إلى معاقل المعنى انغلقت دونه سراديب الدلالة ؛ فإذا القصيدة محتجبة في قلاع من التشفير وحصون من التعمية و الترميز .

1 – معالم الكون السيميائي:

يذهب كل من أوزوالد ديكرو وجان ماري سشفاير إلى أن التفكير حول العلامات هو

1 - ينظر رومان ياكوبسون : قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1 ، 1988ص 24 .

ممارسة فكرية وفلسفية قديمة. ومع أنهما يعترفان بوجود بعض الإرهاصات العابرة للتفكير العلامي عند كل من أفلاطون وأرسطو إلا أنهما ينسبان المحاولات الأولى إلى القديس أوغستان الذي ميز بين العلامات الطبيعية والعلامات التواضعية، بل إنه اهتم بالتمييز بين العلامات والفرق بين وظيفة العلامات عند الحيوانات ووظيفتها عند البشر ،غير أن مصطلح السيمياء نفسه لم يكتب له الظهور على حيز الوجود إلا مع الفيلسوف جون لوك في مقال له شهير عن الفهم البشري[1] .

وربما ذهب بعض الباحثين إلى توكيد دور الرواقيين والأبيقوريين في بحث مسائل تخص العلامات؛ فقد رأى الرواقيون في مناظرة لهم مع الأبيقوريين (300 ق م في أثينا) أن العلامة المثالية هي ما نطلق عليه العرض الطبي،وهذا في الجدل الدائر بينهم حول تقسيم العلامات إلى طبيعية أو تواصلية[2].

غير أن اهتمام القدماء بدراسة العلامات لم ينهض على إطار نظري متكامل ليؤسس علما واضح المعالم ،بل كان أقرب إلى تأملات متناثرة في ثنايا ممارسات معرفية متعددة كفلسفة اللغة و علم النحو والبلاغة وعلم الفراسة،وهذا ما جعلها تبدو أقرب إلى الملاحظات العامة منها إلى الاستقصاء العلمي الصارم . وبناء عليه يرى أغلب الباحثين أن السيميائيات بمعناها العلمي الدقيق لم تظهر سوى في القرن العشرين.[3]

وللسيمياء مصادر فلسفية معاصرة يذهب كل من تودورف وديكرو في قاموسهما إلى الإشارة إليها؛فقد كان للفيلسوف الألماني ارنست كاسيرر تأثير في النظرية السيميائية المعاصرة،وبخاصة في كتابه (فلسفة الأشكال الرمزية). وقد تبين أن لكل من فريجه ورسل وكارناب أدوارا مباشرة أو غير مباشرة في تشكل المفاهيم السيميائية المعاصرة بما لهم جميعا من إسهامات وأبحاث فلسفية أو منطقية تتعلق بمشكلات نشأة المعنى وتداوله وفهمه. [4]

أما أحمد يوسف فإنه يوسع دائرة المصادر المعرفية التي استفادت منها السيميائيات،حين يشير إلى ارتباطها في القديم والحديث بنظرية المعرفة،ويذكر كلا من أرسطو و لوك وكوندياك وبيرس بوصفهم أبرز أعلامها، ولكنه يربطها . في الوقت عينه . بنظرية الدلالة،التي برز فيها كل من الرواقيين وجماعة بور رويال وكانط وبنفينيست وغريماس

1 - تنظر مادة السيميائيات علم العلامات ، في : القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان ،ترجمة منذر عياشي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 2 ، 2007 ، ص 193 .
2 - بول كوبلي ليتسا جانز : أقدم لك علم العلامات ،ترجمة جمال الجزيري،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرةط ، ص 13 .
3 - التهامي العماري : حقول سيميائية (إعداد وترجمة) ، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس ، ط1 2007 ، ص 5 .
4 - ينظر القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان (مرجع سبق ذكره) ص 196 .

ومدرسته،بل إن السيميائيات قد نهلت من معين الوضعية المنطقية التي تجسدت بشكل خاص في جماعة فيينا التي كان كارناب وفريجه من أعضائها. ومثلما أفادت من رمزية كاسيرر فقد استفادت من سلوكية شارل موريس . [1]

وقد صار من الشائع اليوم أن علم السيمياء هو العلم الذي يدرس العلامات و يهتم بالأنساق العلاماتية مهما كان مصدرها وأيا كانت طبيعتها. ويكاد يكون هذا التعريف مشتركا بين أغلب الباحثين والمتخصصين[2]،ومن هؤلاء الباحثين ميشيل فوكو الذي يحدد السيمياء قائلا : " ولنطلق اسم علم السيمياء على مجموع المعارف و التقنيات التي تسمح بأن نتبين أين توجد الإشارات، وتحديد ما يؤسسها كإشارات ". [3]

أما من حيث المصطلح فالمشهور أن له مقابلين مختلفين في اللغات الأجنبية،فأتباع مدرسة سوسير saussure يطلقون عليه سيميولوجيا (sémiologie) الذي صار شائعا جدا في الثقافة الفرانكفونية. أما أتباع الأمريكي تشارلز ساندرس بورس (Pierce)(1838-1914) فيطلقون عليه سيميوطيقا (semiotic) وقد شاع هذا المصطلح في الثقافة الأنجلوساكسونية.

و تميّز تصور سوسير للسيمياء بالثنائية الشهيرة التي تتشكّل من خلال وجهي العلامة (signe) ؛فما العلامة عنده غير التئام طرفين هما الدال (signifiant) والآخر المدلول (sgnifié). وقد ألمح سوسير إلى أهمية علم السيمياء في محاضراته حين اعتبر اللسان نسقا أو نظاما من العلامات الدالة على أفكار أو معان. ورغم أنه يشبه لغة الإشارات عند الصم والبكم والطقوس الرمزية وقواعد السلوك العام والإشارات العسكرية،إلا أنه أرقى من هذه الأنظمة جميعا. لهذا وجب البحث عن علم يضع على عاتقه دراسة هذه العلامات ضمن الحياة الاجتماعـــية. وليست اللســـانيات عند سوسيـر سوى جـزء من هذا العلم العـام الذي

1- أحمد يوسف : السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات ، منشورات الاختلاف المركز الثقافي العربي الدار العربية للعلوم ، ط1 2005 ، ص 54 .

2 - ينظر في هذا الشأن :

- محمد السرغيني : محاضرات في السيميولوجيا ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط 1 1987 . ص 5 .

- Todorov et ducrot : dictionnaire encyclopédique du science du langages , ed Seuil ,paris, 1972, p 113.

- A.J.Greimas et Courtes : dictionnaire raisonné de la théorie du langage , ed Hachette, paris , 1972, tome 1, p 33.

- "semiotics."in Encyclopædia Britannica , 2012. Dvdrom .

- Joëlle Grade-Tamine, Marie Claude Hubert : dictionnaire de critique littéraire, cérès éditions 1998 , tunis. p 279.

3 - ميشيل فوكو : الكلمات والأشياء ، ترجمة مطاع صفدي وآخرين ، مركز الإنماء القومي، بيروت ، ط 1، 1990 ، ص 48 .

يطلق عليه السيميولوجيا. [1]

ويذكر كثير من الباحثين في السيمياء أن المنطلقات المعرفية التي بنى عليها سوسير تصوره للسيمياء كانت لسانية بالدرجة الأولى،ومن هنا قَصُرَ النموذج السوسيري عن مقاربة الظاهرة الشعرية في بعدها التأويلي لأن النموذج السوسيري وثيق الارتباط بالتصوّر البنيوي المحكوم بالمقولات المشهورة : (الدال والمدلول - التزامن والتعاقب - اللغة و الكلام - التوزيع والاستبدال)

أدى هذا التصوّر إلى اعتبار النص بنية مغلقة على نفسها, فهي تنتج دلالتها الخاصة بحسب نظامها الداخلي مما لا يفسح المجال لانفتاح النص على أي تأويل أو قراءة تتجاوز ظاهر البنية التي تعتصم بقواعد النظام اللغوي المتحكّم في إنشاء دلالات النص وفق محوري التوزيع والاستبدال .

وربما كان إسراف البنيويين الظاهر في تطبيق المقولات السابقة،وشططهم في قصر معاني النصوص الأدبية عامة والشعرية خاصة على ما تسمح به قواعد اللغة من استنتاجات هو ما حفز الفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو على تأليف كتابه الشهير " الأثر المفتوح " سنة 1962،رغبة في كسر طوق البنيوية الذي أمسك بخناق الدراسات الأدبية حائلا بينها وبين ما تصبو إليه من تحليق في آفاق المعنى الرحيبة.

كان شارلز ساندرس بيرس قد اتجه وجهة فلسفية مرتبطة في كثير من جوانبها بعلم المنطق وفلسفة اللغة, وهذا ما جعل تصوّره للعلامة عميقا غنيا مكتنزا بمفاهيم شديدة الخصوبة برغم ما يشكو منه دارسوه من التعقيد الكبير الذي يسم منظومته الفلسفية،والتشعّب البارز الذي يثقل كاهل شبكته الاصطلاحية .

ولعل هذا الاختلاف في الاصطلاح و التصور و المنطلقات المعرفية هو الذي حمل فيكتور بورجين على أن يوضح الفرق بين المصطلحين قائلا: " مصطلح السيميولوجيا اليوم وفي أشيع معانيه المستخدمة في مجال النظرية، يشير إلى النهج القديم؛ إذ يركز تركيزا شبه كامل على اللغويات (السوسيرية Saussurian). أما مصطلح السيميوطيقا فهو الأكثر شيوعا الآن،ويستخدم لتحديد المجال دائم التغير الخاص بالدراسات البينية وهو المجال الذي يتركز في العادة على الظاهرة العامة الخاصة بال " معنى " في المجتمع (وهناك تعبيرات أخرى في الأشكال المستخدمة حاليا،وهي تعبيرات مساوية لها بدرجة أو بأخرى: السيميوطيقا

1- Ferdinand De Saussure : Cours de linguistique générale , éd Payothèque, paris, 1979, p 33 .

النصية التحليل التفكيكي، النقد ما بعد البنيوى) ". [1]

ورغم ما بين المصطلحين ومرجعيتهما من اختلاف إلا أن بعض الدارسين وقف على ما يشبه التوافق في بعض التصورات،فقد لاحظ جيرار دولودال أن هناك مبدأين مشتركين بين بورس وسوسير يمكن ضبطهما كما يلي:

- المبدأ الأول : لا وجود لفكرة دون وجود علامات .
- المبدأ الثاني : وجود العلامة وخصوصيتها يتحققان بالدرجة الأولى بشرط اختلافها وعدم تطابقها مع باقي العلامات. [2]

2 -النسق العلامي عند بورس :

يقول بورس في تعريفه للعلامة: " العلامة أو الماثول representamen هي شيء يقوم لشخص ما مقام شيء آخر،من جهة ما أو من حيثية ما،إنّها تتوجه إلى شخص ما،أي إنها تولد في ذهن هذا الشخص علامة مساوية للعلامة الأولى،أو ربما أكثر تطورا منها. وهذه العلامة المولدة ،أسميها مؤولة العلامة الأولى . هذه العلامة تقوم لشيء ما الذي هو موضوعها الخاص object. وهي تقوم لموضوعها ليس من كل الحيثيات ،ولكن بالإحالة إلى فكرة سميتها أحيانا أساس الماثول " [3].

ويربط تعريف بورس للعلامة بالمستويات الثلاثة الآنفة الذكر؛فالعلامة لا تتشكل إلا بعد تحوّلها من إمكان إلى تحقق ثم إلى قانون. وعلى هذه الصورة يفترض بورس أن العلامة تتشكّل من ثلاثة أقطاب هي الماثول Représentamen والموضوع Objet والمؤول Interprétant .وهذا الأثر ثلاثي العلاقة لا يمكن بأي حال أن يختزل إلى مجرد علاقات بين أزواج[4]. ولا يمكن لفعل التدليل العلامي أن يأخذ مجراه إلا بعد توافر شبكة من الإحالات بين الأقطاب الثلاثة:

أ- الماثول: يعرّفه بورس بقوله:"إن العلامة (أو الماثول) هي شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. إنّه يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا. إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحلّ محلّ شيء هو

1 - بورجين : نهاية نظرية الفن the art of theory نقلا عن ستيفن بان : السيميوطيقا ، ترجمة خيري دومة ، ضمن موسوعة كمبردج في النقد الأدبي المجلد الثامن (من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية) تحرير رامان سلدن، مراجعة وإشراف : ماري تيريز عبد المسيح ، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ط 1 ، 2006 ، ص 146

2 - جيرار دولودال ، السيميائيات أو نظرية العلامات ، ترجمة عبد الرحمن بوعلي ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط 1 ، 2004 ، ص 58 .

3 - سيمياء التأويل الحريري بين الإشارة والعبارة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط 1 ، 2000 ، ص 18 .

4 - جيرار دولودال : السيميائيات أو نظرية العلامات ، ص 61.

موضوعها". وبناء على هذا التعريف يحدد سعيد بنكراد خمس خصائص تميّز الماثول وتبرز دوره في المنظومة الثلاثية للعلامة ونتبيّنها على النحو التالي :

-الماثول ليس واقعة لسانية بالضرورة .

-الماثول لا يحيل على نفسه لأنه دائما يحلّ محلّ شيء آخر .

-الماثول أداة للتمثيل فحسب .

-لا يوجد الماثول إلا من خلال تحيينه داخل موضوع ما.

-لا يمكنه الإحالة إلى موضوعه إلا بوجود مؤول يمنح العلامة صحتها.[1]

ب- الموضوع: هو مادة اشتغال الماثول ومبرر وجوده؛فلا وجود لماثول دون أن يكون له ارتباط بموضوع ما يقوم بتمثيله،ويتصل به عن طريق المؤول الذي يؤطر منطق وسياق العلاقة بين الماثول وموضوعه . والموضوع هنا قد يوازي المدلول عند سوسير ويعرفه بورس قائلا : هو المعرفة التي تفترضها العلامة لكي تأتي بمعلومات إضافية تخص الموضوع . غير أن المعرفة التي يوفّرها الموضوع تتمظهر من خلال صورتين تحدد كل منهما جانبا من الموضوع. و يمكن ضبطهما كما يلي :

ب -أ- الموضوع المباشر: هو كل ما يدرك بصورة مباشرة ويتحدد داخل العلامة بوصفه معلومة جديدة،ففي قولنا السماء زرقاء لا يتعدى الموضوع المباشر هنا حدود ما تقدمه الجملة في سيرورتها الإبلاغية من معرفة مباشرة قوامها إسناد صفة الزرقة للسماء.

ب-ب- الموضوع الدينامي: هو المعرفة الضمنية أو الدلالة الحافة الناشئة عن السياق الثقافي والاجتماعي والبيئي الذي يتحدث فيه المتكلم؛ فالموضوع الدينامي هنا هو تلك الإحالات الناشئة عن التلوينات الإيديولوجية والثقافية والبيئية التي من شأنها أن تمنح التجربة الإنسانية خصوصيتها وتبعدها عن العمومية والتجريد، إذ تتحوّل الإحالة هنا إلى استعمال رمزي للغة في سياقات بعينها،كأن تدلّ زرقة السماء على السعادة مثلا،أو على نقاء الضمير والطهر الأخلاقي أو الجمال الروحي.

ج- المؤول: يعد المؤول حلقة وصل بين الماثول والموضوع،لأنه هو الذي يسمح بإحالة الماثول على موضوعه،وهو الذي يحدد للعلامة صحتها ويضعها كواقعة إبلاغية. إنه يجسد القانون الذي يحكم سيرورة التدلال في العلامة. وفي اللغات الطبيعية لا يمكن للمؤول إلا أن يكون جزءًا من حقل ثقافي يشتغل كخلفية لعملية إنتاج العلامات،ويفرض وجوده

1 - ينظر سعيد بنكراد،السيـــميائيات والتأويل، المركز الثقافي العربي،الدار البيضـــاء ،ط1، 2000 ص 79 .

كشرط سيميائي لتوليد الدلالة .

3- السيرورة التأويلية :

والمؤول من هذا الوجه هو تلك الفعالية الذهنية التي تعطي للعلامة قوتها وحيويتها من جهة كونها حاضنة لمعنى أو لمجموعة من المعاني ضمن الواقعة الإبلاغية. فالمؤول هو الذي يخصب العلامة بما يقوم به من تحريك الدلالة و تفعيلها وإنتاجها أو توجيهها باعتبار المقصد الذي تنشأ عنه والسياق الذي تنمو فيه . [1] وقصد ضبط دور المؤول في السيرورة التدليلية،فقد صنف بورس المؤولات إلى ثلاثة أصناف:

أ- المؤول المباشر: هو يطلق اشتغال الدلالة والتواصل في مستواهما الابتدائي بطريقة وصفية أولية؛ فكل علامة تستبطن دلالة أولى فيها حد أدنى من المعرفة يستند إلى ما يسميه بورس الموضوع المباشر. وتكون الدلالة هنا محدودة جدا ومحصورة فيما تقدمه العلامة من معطيات مباشرة عن الموضوع.

ب- المؤول الدينامي: هو الذي يطلق حركية التأويل من عقالها،لأنه يدخل العلامة في سيرورة تدليلية تتحول العلامة بوساطتها إلى مولد دينامي للدلالات،مما يعطي للسيميوز فعاليتها وكفاءتها الإبلاغية التي تنهض دائما على وجود مؤول يضطلع بوظيفة التجاوز التأويلي،التي تضمن نمو العلامة و توالدها. و المؤول الدينامي هو المسؤول عن مدّ حركية التأويل إلى أقصى حدّ ممكن واستثمار الطاقات الدلالية للعلامة إلى أبعد مدى .

ج- المؤول النهائي: يتحدد بوصفه نقطة إرساء دلالية تتكفّل بإيقاف سيرورة التوالد الدلالي اللامتناهية التي يفجرها المؤول الدينامي. والتحليل السيميائي يفترض دائما وجود أفق نهائي تتوقف عنده السيميوز وإلا استحالت عملية التدليل وصارت بلا معنى؛فالعدد اللانهائي من الإحالات المحتملة ينسف العلامة ويدرجها في دائرة العبث واللاجدوى وعدم القصدية . والمؤوّل النهائي يتمظهر كاختيار أو ترجيح يضطلع بوظيفة تحديد احتمال تأويلي يكون خاتمة لليسرورة التدليلية في السيميوز.

وصفوة القول هي إن التصور البورسي للسيميوز بوصفه نسقا منفتحا على التأويل،قد ألهم باحثين آخرين ومنظرين، وقدم لهم مسوغات نظرية قويّة حملتهم على مراجعة مناهج دراسة الخطاب الشعري المعاصر، الذي تحول منذ عقود نحو الكثافة الدلالية،وراهن على التعمية والغموض كإستراتيجية فنية مما حمل بعض النقاد على اجتراح مقولات لتفسير الظاهرة الشعرية كالانزياح

1 - ينظر طائع الحداوي:سيميائيات التأويل الإنتاج ومنطق الدلائل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 2006 ، ص 342 .

ومع أن نموذج بورس يبدو واعدا بنتائج باهرة على مستوى التأويل،غير أن نسقه التجريدي المتعالي يحول دون إسقاطه بصورة آلية على النصوص الشعرية؛فالتقسيمات التي أنشأها بورس للمنظومة العلامية هي في غاية التشعب والتجريد، وربما حادت في كثير من تصوراتها المنطقية عن طبيعة الخطاب الشعري القائمة على الانحراف الدلالي. *

وتسلمنا هذه الحقيقة إلى التوسل بمفهوم الشفرة ،نأيا منا عن بخس القصيدة بوصفها جنسا أدبيا مستقلا حقها من التحليل وفق ما يناسب طبيعتها؛فلا يعقل أن نسوي بين نص شعري ونص قصصي بدعوى الاشتراك في أصل الوجود وآلاته،فإذا فعلنا هذا فقد نسوي بين مظاهر الطبيعة كلها،وحينئذ فإننا نقع في اختزال مشين ومضحك. [1]

4 - مفهوم الشفرة :

يعد مفهوم الشفرة مفهوما أساسيا في السيمياء المعاصرة، إذ تنظر السيمياء إلى الخطابات والنصوص والأنساق الثقافية والأطر المعرفية ومظاهر الحياة الشعبية والفولكلور بوصفها أنظمة مشفرة،لا يمكن فهم آليات اشتغالها،و استكناه حقائقها دون النفاذ إلى أسرار الشفرات التي تشكل أبنيتها الخطابية وصورها الإبلاغية وتمثيلاتها الرمزية في عالم التواصل. ولا يمكن إنشاء خطاب دون أن تتحدد طريقة عمل الشفرة التي تضمن تماسك الخطاب على المستوى الإبلاغي والمنطقي والرمزي.

وإذا كان الكلام ذا طبيعة انتقائية جدا،لتأثره بالطريقة التي تعمل بها الثقافة حين تستبعد موضوعات معينة وتركز على أخرى،فإن الكتابة على هذا الوجه تصير تشفيرا مضاعفا أو ترميزا على ترميز [2]. ولا يمكن تداول المعاني والدلالات في ثقافة ما دون ابتكار علامات للتواصل، تشتغل كوسائط مشفرة يحكمها منطق مشترك،وتحدوها قواعد عامة لترميز المعاني والدلالات وضبطها في أنساق لسانية خاصة، قصد تخزينها في سجل التداول اليومي، أو حفظها في الذاكرة اللسانية للجماعة البشرية.

وينظر السيميائيون اليوم إلى مظاهر الثقافة المتنوعة كالفنون المطبخية و هندسة العمران والأثاث والموسيقى ولغات الجسد المختلفة بوصفها استراتيجيات تواصلية تنطوي على معلومات مشفرة. وليس الحديث عن القواعد الدلالية والتركيبية التي تحكم هذه النظم جميعا

* لمعرفة مدى التشعب والتجريد الماثل في منظومة بورس يرجى مراجعة فصل : " الدلالات المفتوحة ومنطق الثالثانية "،ضمن كتاب:عبد القادر فهيم شيباني، السيميائيات العامة أسسها ومفاهيمها، منشورات الاختلاف، الجزائر . الدار العربية للعلوم ، بيروت، ط 1 ، 2010، صص 93-162 .

1 - ينظر محمد مفتاح : دينامية النص (تنظير وإنجاز) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 3 2006 ، ص 49 .

2 - Edward T.Hall, the silent language, doubleday & company , new York , 1959 , p 120.

بأقل أهمية من الحديث الذي يحكم المقول من الكلام .[1]

وقد ظلت الشفرات المسؤولة عن إنتاج وتفسير المعنى مجال بحث ومساءلة وتصنيف من قبل السيميائيين؛فمنها الشفرات الاجتماعية،والتفسيرية،و الإدراكية،والنصية. وبناء على هذا يمكن اعتبار القصيدة معرضا يمكن أن تتجلى فيه هذه الشفرات جميعا بنسب متفاوتة . ويعضد هذا التصور ما ذهب إليه يوري لوتمان، الذي نظر إلى الشعر بوصفه نظاما سيميولوجيا (علاميا)، بل إنه لغة ثانية مفارقة للغة الطبيعية .[2]

تتشكل القصيدة من نظام شفرات لغوية إدراكية ونصية وإيديولوجية وثقافية. ويعمل نظام الشفرات على تأطير المضامين الدلالية وشحنها وصياغتها وفق مقاصد الشاعر. وهذا التآزر بين أنظمة التشفير هو الذي يحول القصيدة إلى بينة سيميولوجية عضوية يستحيل فك شفراتها الأدبية دون علم بمفاتيح هذه الشفرة[3]. و تقتضي مساءلة هذه النصوص أن نكون على علم مسبق بأنظمة الشفرة المعتمدة في الكتابة الشعرية؛ ففعل قراءة القصيدة المعاصرة يستلزم دوما معرفة خاصة بموروثها، كما يقتضي في الآن نفسه مهارة تأويلية.[4]

وحتى توفق هذه المهارة التأويلية إلى بلوغ غايتها يرى روبت شولز انه ينبغي أنه لكي نقرأ قصيدة ما يجب ان نعرف موروثها الصنفي،وعددا من النصوص الأخرى في ذلك الموروث. لهذا يجب أن تُفرزَ عناصر النص(السردية،الدرامية الخطابية الشخصية) الغائبة بسبب الطبيعة الإجمالية التي تعتمد الحذف البلاغي في الخطاب الشعري . [5]

وعادة ما ينهض نظام التشفير في القصيدة على نحو مختلف جدا عما هو شائع في غيرها من ضورب الكتابة،إذ يقوم النظام الإبلاغي في القصيدة على المراوغة في تأدية المعنى وتصويره. والشعر الجيد،هو الذي يحمل بلاغا شعريا هو الذي يتواكب فيه المتوقع واللامتوقع في وقت واحد. وفقدان المتوقع يجعل النص عديم المعنى أما فقدان للامتوقع فيجعله عديم القيمة.[6]

---

1 - ينظر دانيال تشاندلر : أسس السيميائية ، ترجمة طلال وهبة ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط 1 2008 ، ص 253 .

2 - ينظر يوري لوتمان : تحليل النص الشعري "بنية القصيدة "،ترجمة محمد فتوح أحمد ،دار المعارف،القاهرة ،ط 1 1995، ص 178

3 - المرجع نفسه ، ص 178 .

4 - ينظر روبرت شولز : السيمياء والتأويل ، ترجمة سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط 1 1994 ، ص 75 .

5 - ينظر روبرت شولز : السيمياء والتأويل ،ص 77

6 - ينظر يوري لوتمان : تحليل النص الشعري " بنية القصيدة " ، ص 179.

ومن هذا الوجه وجب التنويه بأن إدراج مفهوم الشفرة في دراسة القصيدة المعاصرة إنما يأتي هنا كرافد سيميائي يراد به فهم أسباب التشابك والتعقيد التي يختص بها نظامها العلامي،إذ يجعل طريقتها الإبلاغية مصممة خصيصا من أجل أن تثير فينا القلق قبل كل شيء؛فالنصوص الشعرية تتعمد أبدا هتك حرمة توقعاتنا لأنها تتحدى طرائقنا المقبولة في الكلام ولإدراك الحسي والاعتقاد.[1]

5. حركية التأويل في قراءة القصيدة المعاصرة :

ينظر إلى تأويل النصوص الشعرية على أنه منهج فحص الشفرات النصية والإيديولوجية.والقصيدة بوصفها نظاما متعدد التشفير (شفرة نصية،وشفرة إيديولوجية،وشفرة إدراكية) تحتاج إلى ثلاثة ضروب من المعرفة لا يستغني عنها فعل التأويل، وهي :

أ- العالم (معرفة اجتماعية).

ب- وسيلة الاتصال والصنف (معرفة نصية) .

ت- العلاقة بين (1) و (2) (أحكام موقفية) .[2]

و ومن هنا تصير الدراسة السيميائية قائمة على استثمار مقولات التأويل بصفته بحثا في المضمر،وغير المتعين وغير المسمى؛ فاستراتيجية القراءة السيميائية لأنظمة تشفير المعنى في الخطاب الشعري لا تكتفي بتحديد الأنساق العلاماتية واستشفاف العناصر الدلالية التي تنبني عليها شبكات المعاني، بل تحاول أن تستقرئ وضعية منظومة العلامات ونمط اشتغالها في النص،من حيث كونها ذات دلالات متوالدة ولا متناهية .

ولئن كان المضمر خفيا وغير صريح، أو هاجعا في هوامش النص ومتواريا في أقبية اللغة،أو ثاويا في سراديب الكلام إلا أنه يظل أبدا غير منسي ولا مؤجلا،بل عليه يدور قصد الكتابة،وإليه ينتهي مطاف الإبداع. من هنا وجب على ألا نطمئن إلى ما نظفر به من نتائج أولية ،وأن نخاتل معاني هذه القصائد ونراود دلالاتها عساها تهتك ما احتجب من كنوز الإشارات ،وتكشف ما انطمس من روائع الإيماءات.

وإذا كان التأويل في أبسط تصوراته لا يخرج عن أن يكون مزاوجة بين ذاكرة النص وذاكرة القارئ عبورا بما اختزن في ذاكرة الناص،فإنه في عالم النص الشعري تطواف عبر آفاق

1 - ينظر روبرت شولز : السيمياء والتأويل ، صص 83 – 89 .
2 - ينظر دانيال تشاندلر : أسس السيميائية ، ص 256 .

الدلالات يشبه رحلة البحث عن أسطورة الكأس المقدسة*في الميثيولوجيا المسيحية؛فما اختراقها لعالم الفنون والآداب إلا سعيٌ إلى الكشف عن تحققاتها المحتملة،ومحاولةٌ لاستجلاء مكنوناتها الغامضة. وما رواية (شفرة دافنشي) للكاتب البريطاني دان براون Dan Brown إلا دليل ساطع على ولع البشرية بفك الرموز وشغفها بتقصي الأسرار ،واكتناه ما خفي من أساليب التعمية وألغاز التشفير .

أو ليس النقد في حد ذاته قائما على اعتبار الكتابة خصوصا واللغة عموما نظام شفرة ينهض أولا على تآلف الرموز والإشارات؟ من هذا الوجه تغدو كل كتابة تشفيرا لسلسلة من المعاني والدلالات التي يغص بها الكون وتزدحم بها الحياة. ولكن إذا سلمنا بصحة هذا الافتراض فإنه سيخلص بنا إلى الاعتقاد بتعدد أنظمة التشفير وتنوع أساليب فك الشفرة.

ومع افتراض أن كل نص شعري ينهض بالضرورة على الحضور المزدوج لكل من نظام التشفير ونظام فك الشفرة،وجب أن نسلم بأن تداول المعنى الشعري بين منتجه ومستهلكه، سيخضع لتواطؤ ضمني فيما يشبه التعاقد، يتأسس على تداول مضمر لنظم الفتح والإغلاق بين طرفي التواصل؛ ذلك أن التشفير بوصفه نظام إغلاق قد لا يكون كليا لأنه قد يتضمن إشارات إلى طرق استعمال الشفرة، والإفادة من شبكتها العلامية،على نحو يضمن للمتلقي الاهتداء إلى فك ألغازها باعتماد السنن الثقافي والاجتماعي واللغوي،الذي تستقي الشفرة منه كثيرا من عناصر منظومتها العلامية.

وعلى هذه الصورة قد تكون مسألة المعنى في النص الشعري هي مسألة كتابة مشفرة ، بمعنى أن شعرية الدلالة في القصيدة تنهض على شعرية التشفير،الذي يقتضي ويفترض هو الآخر شعرية القراءة التي وحدها لها كل القدرة على فك نظم الإغلاق ،ومن هنا يصير عمل القارئ البصير أو الناقد المحترف هو إعادة إنتاج النص .

لكن ارتحال المعنى على هذا النحو يطرح سؤالا حادا يتعلق بملكية النص/ المعنى . وما

* - هناك عدة روايات عن الأصول الأسطورية للكأس المقدسة (بالانجليزية the holy grail ، وبالفرنسية le saint graal) . وكان لظهور روايات ومؤلفات أبرزها رواية "شفرة دافنشي" لمؤلفها دان براون دور هام في عودة أسطورة الكأس المقدسة إلى الظهور في العقود الأخيرة . ورغم الجدل التي أثارته الرواية و الكتب الأخرى حول حقيقة الكأس و ماهيتها ورمزيتها في الدين المسيحي، إلا أن قصص الكأس وأساطيرها قديمة، وربما ترجع إلى السحر والخيمياء و علوم الغيبيات. وقد ظلت الكأس المقدسة لغزا هيمن على كثير من الجماعات السرية في الغرب ، كفرسان الهيكل وغيرهم . ولمزيد من المعلومات يرجى:

- قراءة المقال المنشور على صفحة البي بي سي : بحثا عن الكأس المقدسة ..سر الأسرار لتوفيق محمد السهلي، ورابطه على شبكة المعلومات الرقمية :

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_5007000/5007070.stm

فتح رابط اليوتوب : http://www.youtube.com/watch?v=AcL9K1znLpQ بالفرنسية

فتح رابط اليوتوب :http://www.youtube.com/watch?v=CP139R4ElOo بالانجليزية

يزيد الأمر تعقيدا هو انفصال المؤلف عن عمله مباشرة بعد أولى عمليات التلقي والقراءة، أوَلَمْ يعلن الناقد الفرنسي رولان بارت موت المؤلف ؟ إن اختفاء المؤلف أو تراجعه أو غيابه عن مسرح القراءة و الشرح والتفسير ينزع عنه سلطة احتجاز المعنى وادعاء ملكية النص .

لكن تحرر النص من هيمنة المؤلف بعد سلسلة الحفريات التي تطال أغواره وتخومه بحثا عن كنوزه المخبوءة قد يؤدي إلى تراكم أنظمة فك الشفرة الناشئ عن تعدد الشروح وتنوع التفاسير وتعاقب القراءات ،وهذا كله قد ينتهي بالنص إلى انتفاء الدلالة كما قد ينتهي بالمؤلف إلى فقدان الهوية ؛لأن الإمعان في البحث عن هوية الناص هو إمعان في إخفائها. والإلحاح في البحث عن المعنى هو إلحاح على إنكاره .

ماذا سيبقى من هوية النص وصورة المؤلف بعد انتهاء الحفريات ؟ ألا يغدو تشريح النص في أكثر الحالات تشويها للمكونات الأصلية للصورة ؟ ألا يغدو التشريح من وجه آخر إمعانا في قتل المعنى ؟ ثم ألا يصير تعدد القراءات في كثير من الحالات إغراقا في خيانة النص الأصلي بدعوى احتمال تعدد المعنى وانزياح الدلالة ؟ لكن هذه الأسئلة تنفتح من جانب آخر على سؤال أشد حرجا وإلحاحا هل هناك نظام تشفير واحد في النص أم هي عدة أنظمة ؟ ثم ألا يكون التأويل بهذا التصور فخا يستبطن إما طعنا في هوية النص أو طعنا في هوية منتج النص ؟ ولكن ألا تكون أنظمة القراءة نفسها هي أنظمة إعادة التشفير بما هي أنظمة تأويلية ؟

يحدد أمبرتو أيكو ثلاثة أنماط من المقاصد يروم التأويل كشفها هي

1 . مقاصد المؤلف. 2. مقاصد النص. 3.مقاصد القارئ .

ولكن هذا لا يحسم بالنسبة له نتائج التأويل ، فكل قراءة تأويلية يمكن أن تتم على وجهين: إما باستنفاذ الدلالات اللانهائية التي ضمنها المؤلف النص. وإما باستهداف الدلالات اللانهائية الثاوية في النص دون علم المؤلف (والتي يمكن أن يضيفها المتلقي رغم من أنه لا يمكن الجزم بأنها تؤكد مقاصد النص أو تدحضها). 1

وعلى هذه الصورة اتجهت الدراسات إلى فحص طبقات المعاني المضمرة وكشف شبكاتها العلامية وأنساقها الترميزية الثاوية في النصوص المدروسة ،مع الاجتهاد في تأويلها بما قد يكشف وجها أو وجوها من هذه المقاصد. غير أن هذه القراءات في نهاية الأمر ليست غير وجه محتمل من التأويلات العديدة، لا يجزم بأنها يقينة ، ولا يدعى لها الكمال .

1 -أمبرتو إيكو ، سيميائيات التلقي ، ضمن حقول سيميائية (مرجع مشار إليه) ، صص 94 – 96 .

قائمة المراجع :

1. رومان ياكوبسون: قضايا الشعرية، تر محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1 ، 1988.

2. القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر منذر عياشي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2 ، 2007.

3. بول كوبلي ليتسا جانز : أقدم لك علم العلامات، تر جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1 2005.

4. التهامي العماري : حقول سيميائية (إعداد وترجمة) ، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس ، ط1، 2007 .

5. أحمد يوسف : السيميائيات الواصفة، منشورات الاختلاف المركز الثقافي العربي الدار العربية للعلوم ، ط1 2005.

6. ميشيل فوكو : الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي وآخرين ، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط 1، 1990 .

7. موسوعة كمبردج في النقد الأدبي، مج 8 ، تحرير رامان سلدن، مراجعة وإشراف: ماري تيريز عبد المسيح ، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ط 1 ، 2006.

8. جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات ، ترجمة عبد الرحمن بوعلي ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط 1، 2004.

9. رشيد الإدريسي: سيمياء التأويل الحريري بين الإشارة والعبارة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط 1 ، 2000.

10. سعيد بنكراد : السيميائيات والتأويل، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1، 2000.

11. طائع الحداوي : سيميائيات التأويل الإنتاج ومنطق الدلائل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 2006.

12. محمد مفتاح : دينامية النص (تنظير وإنجاز) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 3 2006 .

13. دانيال تشاندلر : أسس السيميائية ، ترجمة طلال وهبة ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط 1 2008 .

14. يوري لوتمان : تحليل النص الشعري "بنية القصيدة "، ترجمة محمد فتوح أحمد ، دار المعارف، القاهرة ، ط 1 1995.

15. روبرت شولز : السيمياء والتأويل ، ترجمة سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط 1 1994.

16. محمد السرغيني : محاضرات في السيميولوجيا ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط 1 1987 .

17. عبد القادر فيهم شيباني، السيميائيات العامة أسسها ومفاهيمها، منشورات الاختلاف، الجزائر .الدار العربية للعلوم ، بيروت، ط 1 ، 2010 0

مراجع باللغة الأجنبية :

1-Todorov et ducrot : dictionnaire encyclopédique du science du langages , ed Seuil ,paris, 1972.

2-A.J.Greimas et Courtes : dictionnaire raisonné de la théorie du langage , ed Hachette, paris , 1972, tome 1.

3-Encyclopædia Britannica , 2012. Dvdrom .

4-Joëlle Grade-Tamine, Marie Claude Hubert : dictionnaire de critique littéraire, cérès éditions 1998 , tunis.

5-Ferdinand De Saussure : Cours de linguistique générale , éd Payothèque, paris, 1979 .

6- Edward T.Hall, the silent language, doubleday & company , new York , 1959.